أمثال مُحبِطة

٢٥/٨/١٤٣٦هـ

تحتل الأمثالُ -العربي منها والشعبي- مكانةً عاليةً في الموروث الثقافي لكل أمةٍ وبلدٍ، ولا شك أن كثيرًا منها يحملُ في طياته خلاصةَ تجاربِ قائليها، وعصارةَ فكرهم، وفي كثير منها وجهٌ من وجوه الحكمة، بل بعضُها يحمل تاريخًا لقصة سارَ بسببها ذلك المثل.

ولشدة تأثير هذه الأمثال في ثقافة كثير من الناس؛ صار بعضُهم يردّدها وكأنها نصوصٌ محكمة، لا يأتيها الباطل مِن بين يديها ولا من خلفها! وأصبح الوالدُ والمعلمُ والشاعرُ والمتحدّثُ في المجالس يستخدمها -في بعض الأحيان- بوصفها دليلًا قاطعًا لحسم الخلاف حول قضيةٍ معيّنةٍ!

والأمرُ المؤلم في هذا الموضوع: هو ما يقع من التسليم بمعاني بعضِ تلك الأمثال، والاستسلام لمضامينها السلبية، وانتقال هذا التأثر بفهمها إلى الواقع؛ فتقعدُ بصاحبها عن معالي الأمور، وتَجاوزِ العقباتِ التي تمرّ به، وسأذكر نماذج لبعضها ليقاس عليها؛ حتى يُعلَمَ أن بعض هذه الأمثال قد يكون جاء في سياقٍ معيّن، أو ظَرف خاص، ولا يَصح استعماله في كل مناسبة، ولِيُعْلَمَ أيضًا أن بعض هذه الأمثال ينبغي الإعراض عنه.

فمن الأمثال الدارجة -وخصوصًا في الأوساط العلمية-: «ما تَرك الأوَّلُ للآخِر»!

وأكتفي في نقد هذا المثل بقول ابن عبدالبَر عن هذه الكلمة: إنها مِن أضر الكلمات بالعلم وبالعلماء والمتعلِّمين[1]، وصواب العبارة عند أرباب الهِمم: «كم تَرك الأوّلُ للآخِر»!

فالجملة الأولى تحمل رسالةً سلبية بقتل الإبداع، وأن مَن سبَقَنا لم يَترك لنا مجالًا لأنْ نُبدِع، أو نجدِّد، أو نُضيف شيئًا، بخلاف الجملة الثانية؛ فهي تَفتح البابَ على مصراعيه لمن يريد الإضافةَ والتجديد، وتَقديمَ النافعِ المفيد.

ولك أن تتصور لو ركَن العلماءُ الذين جاؤوا بعد القرون المفضّلة لهذه الجملة المحبِطة، فهل كنّا سنرى شروحات ابنِ عبدالبَر؟ أم تَفنُّن الخطيب البغدادي في التصنيف في علوم الحديث؟ أم هل كانت ستنتفع المدرسةُ الفقهيةُ بمدونات النووي أو ابن قُدامة، وغيرهما من محقّقي الفقهاء؟ أم تُرانا كنّا نستفيد مِن تحريرات وتحقيقات شيخ الإسلام ابن تيمية وتلاميذه، وأخص منهم ابن القيم، وابن كثير، وابن عبدالهادي- في شتى الفنون؟ أم هل كانت ستنعم المكتبةُ الإسلاميةُ -والحديثية خاصة- بتحريراتِ المزيّ وتلاميذه -كالذهبي وابن كثير-؟ أم هل كنّا سنرى تلك الإضافةَ العلميةَ العظيمةَ في مصنفات ابن حجر وخاصة فتح الباري؟ أم تجدنا مستفيدين من تجديد الإمام محمد بن عبدالوهاب في أبواب التوحيد -وخاصة توحيد العبادة-؟ أم هل كنّا سنَطْرَب لتحقيقات العلامة المعلّمي اليماني؟ وغير هؤلاء كثير جدًّا.

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (١/ ٤١٦).

وما أجمل قولَ ابن القيم -وأصل الكلمة لشيخه ابن تيمية-: «العامّة تقول: قيمـــة كلّ امرئٍ ما يُحســـن، والخاصة تقول: قيمـــة كلّ امرئٍ ما يَطلب، يريد: أن قيمة المرء همّته ومطلبه»[1]؛ فدع عنك هذا المثل المحبِط، وانظر فيما تتطلع له همّتك، وتأمل ما الطرق التي يمكن ســـلوكُها لتقديم الجديد والمفيد؛ فاسلكه مستعينًا بالله.

وهذا الكلام ليس خاصًّا بعلوم الشريعة فحسب؛ وإنما في جميع الفنون والمجـــالات -الدعويـــة، والإغاثية، وغيرها- بـــل وفي العلوم الدنيوية المحضة؛ إذْ لو استســـلم المخترعـــون لواقعهم، لم ننعم بهـــذه التقنيات الحديثة، التي لم يكن أكثرها موجودًا قبل مئةِ سنة من الآن.

ومن تلك الأمثال الســـائرة -وهو مثلٌ شـــعْبي-: «يوم شاب دخلَ الكُتّاب»؛ أي: يوم تقدّم به السنّ بدأ يتعلّم!

وهذا المثل يحمِل رسالةً ســـلبيةً لهذا المتعلّم الذي تعلّم على كبَرِ سِنّه، وكأنه يُقال له: ما فائدةُ تعلّمِك في هذه السن؟ ومِن أقرب ما يفنّد مدلول هذا المثل: عموم الأدلة الدالة على طلب العلم وتحصيله؛ ولهذا لما ســـاق البخاريُّ قولَ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «تفقّهوا قبل أن تُسَودوا» علّق عليه البخاري قائلًا: «وبعد أن تُسَـــودوا، وقد تعلّم أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كبر ســـنهم»[2]، ولأنْ يموت الإنســـانُ متعلماً خيرٌ له مـــن أن يموت راضيًا بجهله.

وبكل حالٍ، فليس المقصودُ من هذه المقالة حصرَ الأمثلة التي من هذا

(١) مدارج السالكين (٣/ ٥).

(٢) صحيح البخاري (١/ ٢٥).

النـــوع، بل التنبيه على ما أشرتُ إليـــه في المقدمة؛ مِن ضرورة التنبّه للأثر الســـلبي لهذه الأمثال التي تُردَّد دون وعي في بعـــض الأحيان، وينقلها اللاحقُ عن الســـابق، وأن يُدقِّق الإنســـانُ في هذه الجُمَـــل، ولا يلتفت للمثبّط منها والمحبِط، وليكن لسان حاله: «استعن بالله، ولا تعجز».